المركز الماركسي ـ اللينيني للدراسات و الأبحاث و التكوين
مقدمة الطبعة الألمانية الأولى من
المجلد الأول من "الرأسمال"
مكتبة النجمة الحمراء

ماركس

مقدمة
للطبعة الالمانية الاولى
من المجلد الاول من «الراسمال» (٢٩)

ان العمل الذي اعرض المجلد الاول منه على الجمهور ، هو مواصلة لمؤلفي المنشور في عام ١٨٥٩ «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» وسبب هذه الحقبة الطويلة بين البداية والمواصلة هو مرضي المزمن الذي كان يقطع حبل عملي المرة تلو المرة

لقد اوجزت في الفصل الاول من هذا المجلد (٣٠) مضمون مؤلفي السابق المشار اليه اعلاه . ولم افعل ذلك لاجل المزيد من الترابط ولاجل كمال البحث وحسب فان العرض نفسه قد تحسّن . وان نقاطا كثيرة كانت هناك بالكاد مرسومة ، قد لقيت هنا مزيداً من الشرح بقدر ما سمح بذلك موضوع البحث ، في حين ان الموضوعات المعروضة هناك بصورة مسهبة لم ترد هنا على العكس الا بصورة موجزة . وغني عن البيان ان الابواب التي تتناول تاريخ تطور نظريتي القيمة والنقد ، قد حذفت هنا تماما ولكن القارى الذي اطلع على عملي «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» سيجد في الملاحظات العائدة الى الفصل الاول من هذا المؤلف مصادر جديدة في تاريخ هاتين النظريتين .

كل بداية صعبة وهذه الحقيقة تصح بالنسبة لكل علم واكبر المصاعب في الحالة المعنية تنشأ عن محاولة فهم الفصل الاول ، ولا سيما بابه الذي يتضمن تحليل البضاعة اما فيما يتعلق على الاخص بتحليل كنه القيمة ومقدار القيمة ، فاني قد بسّطته قدر الامكان • . ان شكل القيمة الذي يتخذ ملامحه النهائية في شكل النقد ، بسيط جداً وسطحي جداً ومع ذلك ، حاول العقل البشري عبثاً ان يتفهمه في سياق اكثر من الفي سنة في حين انه استطاع ان يحلل ، بصورة تقريبية على الاقل ، اشكالا اوفر مضموناً واشد تعقيداً لماذا ؟ لان دراسة الجسم المتطور اسهل من دراسة خلية الجسم . وفضلا عن ذلك ، لا يمكن عند تحليل الاشكال الاقتصادية لا استعمال المجهر ولا استعمال الكواشف الكيماوية . بل يجب ان تحل قوة التجريد محل ذاك وهذه ولكن الشكل البضاعي لنتاج العمل ، او شكل قيمة البضاعة ، انما هو شكل خلية المجتمع البرجوازي الاقتصادية وتحليله يبدو

• وقد كان ذلك ضرورياً خصوصاً وان هناك مفارقات جدية في فهم الامور حتى في ذلك القسم من عمل فرديناند لاسال ، الموجه ضد شولتسه-ديليتش ، حيث ترد ، كما يعلن المؤلف ، «الخلاصة الروحية» لبحثي في هذا الموضوع (٣١) وهنا من المناسب القول اذا كان ف لاسال ياخذ جميع الموضوعات النظرية العامة في مباحثه الاقتصادية ، — ومنها مثلا موضوعة صفة الراسمال التاريخية ، وموضوعة الصلة بين علاقات الانتاج واسلوب الانتاج ، الخ ... — من مؤلفاتي حرفيا تقريبا ، بما في ذلك التعابير من استنباطي ، ناهيك بانه لا يشير الى المصدر ، فان هذا يُفسّر ، طبعا ، باعتبارات الدعاية . وبديهي اني لا اقصد الموضوعات الخاصة وتطبيقها العملي الذي لا اشارك فيه البتة .

لغير الملم مجرد سفسطة حول امر تافه وهذا بالفعل امر تافه ، ولكنه من ذلك النوع من التوافه التي يهتم بها مثلا علم تشريح الكائنات المتناهية الصغر .

وباستثناء الباب المتعلق بشكل القيمة ، لا يصعب هذا الكتاب على الفهم . واني اقصد هنا ، بالطبع ، القراء الذين يرغبون في تعلم شيء ما جديد ، ويرغبون بالتالي في التفكير بانفسهم

ان الفيزيائي اما انه يراقب عمليات الطبيعة حيث تتجلى باوضح شكل وحيث اقل ما تطمسها تاثيرات تخالفها ، واما انه يجري اختباراً ، اذا امكن ذلك ، في ظروف تؤمن سير العملية بصورتها الصافية . ان موضوع دراستي في هذا البحث هو اسلوب الانتاج الراسمالي وعلاقات الانتاج والتبادل المناسبة له . ولا تزال انجلترا حتى الآن البلد الكلاسيكي لاسلوب الانتاج هذا وهنا يكمن السبب الذي يوضح لماذا كانت انجلترا المثال البياني الرئيسي لاجل استنتاجاتي النظرية ولكن اذا راح القارئ الالماني يهز كتفيه ، على طريقة الفريسيين المرائين ، بصدد الظروف التي يعيش فيها العمال الصناعيون والزراعيون الانجليز ، او اذا لجأ الى التفاؤل وطمأنة البال بان الامور في المانيا ابعد من ان تكون سيئة بالقدر المظنون ، فانه سيترتب علي ان اقول له De te fabula narratur ! [أوليست هذه قصتك !]*

والقضية هنا ، بحد ذاتها ، ليست قضية هذه الدرجة او

---

* Mutato nomine de te fabula narratur (حسبك فقط ان تغيّر الاسم ، اوليست هذه قصتك !) هوارسيوس . «المجاليات» ، الكتاب الاول ، المجالية الاولى . الناشر .

تلك من تطور التناحرات الاجتماعية التي تنبع من قوانين الانتاج الرأسمالي الطبيعية ، بل قضية هذه القوانين ذاتها ، هذه الميول الفاعلة والمتحققة بضرورة قاطعة فان بلداً اكثر تطـــوراً في الميدان الصناعي لا يبين لبلد اقل تطوراً غير لوحة مستقبله ذاته .

ولكن هذا لا يكفي فحيث قام الانتاج الرأسمالي كليـــا عندنا ، مثلا في المصانع بمعنى الكلمة الحرفي ، فان شروطنا اسوأ بكثير من الشروط الانجليزية لانه لا يوجد لدينا مقابل بصورة قوانين مصنعية . ونحن ، في جميع الميادين الاخرى ، شاننا شان البلدان القارية الاخرى في اوروبا الغربية ، لا نعـــاني من تطور الانتاج الرأسمالي وحسب ، بل نعاني ايضاً من نقص تطوره وفضلا عن بلايا العهد الزاهن ، نكابد جملة كاملـــة من البلايـــا الموروثة ، الناجمة عن كون اساليب الانتاج القديمة التي ولى زمنها ونفد مفعولها والعلاقات الاجتماعية والسياسية الشائخة المطابقة لها لا تزال قائمة . فنحن لا نعاني من الاحياء وحسب ، بل من الموتى ايضاً ! Le mort saisit le vif [الميت يمسك الحي !]

ان حالة الاحصاء الاجتماعي في المانيا وفي سائر البلدان القارية في اوروبا الغربية حالة مؤسفة بالقياس الى ما هي عليه في انجلترا . ولكنه يرفع الغطاء بقدر يكفي بالضبط لكي يخطر في البال وجود رأس «ميدوزا» . ان وضع امورنا بالذات ليرهبنا لو عينت حكوماتنا وبرلماناتنا بصورة دورية ، كما يجري في انجلترا ، لجاناً لتحري الاحوال الاقتصادية ، ولو خُوّلت هذه اللجان نفس الصلاحيات لكشف الحقيقة ، كما في انجلترا ، ولو امكن ان نجد لهذا الغرض اناساً اكفاء وحازمين وغير متحيزين مثل مفتشي المصانع الانجليز والاطباء الانجليز الذين يضعون التقارير عن « Public Health » («صحة السكان») ، ومثل

اعضاء اللجان الانجليزية التي تتحرى ظروف استثمار النساء والاولاد وحالة المساكن والتغذية ، الخ لقد احتاج فرساوس الى قبعة الاخفاء لكي يطارد الغيلان ونحن نستر عيوننا وآذاننا بقبعة الاخفاء لكي نتمكن من انكار وجود الغيلان بالذات

وعبثا نعلل النفس بالاوهام فكما ان الحرب الاميركية في القرن الثامن عشر من اجل الاستقلال (٣٢) قد كانت بمثابة تحذير وانذار بالنسبة للبرجوازية الاوروبية ، كذلك لعبت الحرب الاهلية في اميركا القرن التاسع عشر الدور نفسه بالنسبة للطبقة العاملة في اوروبا . ففي انجلترا اصبحت عملية الانعطاف محسوسة تماما الآن وبعد بلوغها درجة معينة ، لا بدّ ان تنتقل الى القارة وستتخذ هنا اشكالا اشد قساوة او اكثر انسانية تبعا لمستوى تطور الطبقة العاملة نفسها وعليه ، تفرض المصلحة الملحة الحيوية للطبقات السائدة حاليا ، بالاضافة الى الدوافع الاخرى الاعلى شانا ، ازالة جميع العقبات التي تعيق تطور الطبقة العاملة والتي يمكن تسويتها قانونا . ولهذا السبب ، كما لغيره من الاسباب ، افردت في هذا المجلد مثل هذا المكان الكبير لتاريخ التشريع المصنعي الانجليزي ومضمونه ونتائجه . وكل امة تستطيع ويجب عليها ان تتعلم من الامم الاخرى . فان المجتمع ، حتى وأن عثر على اثر القانون الطبيعي لتطوره ، ــ والحال ، ان اكتشاف القانون الاقتصادي لحركة المجتمع المعاصر هو غاية مؤلفي الاخيرة ، ــ لا يسعه لا ان يقفز فوق مراحل التطور الطبيعية ولا ان يلغي هذه المراحل بالمراسيم ولكن في وسعه ان يقصر ويخفف آلام الولادة

بضع كلمات لاجل ازالة كل سوء فهم محتمل . اني ابعد من ان ارسم الراسمالي ومالك الارض بالوان وردية . ولكن الكلام لا

يتناول هنا الافراد الا بقدر ما يجسدون مقـولات اقتصاديـة ويعبرون عن علاقات ومصالح طبقية معينة . واني انظر الى تطور التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية بوصفه عملية تاريخية طبيعية ؛ ولهذا يمكن من وجهة نظري اقل مما يمكن من اي وجهة نظر اخرى ، اعتبار الفرد مسؤولا عن الظروف التي يظل هو نتاجها بالمعنى الاجتماعي ، مهما تعالى فوقها ذاتيا

ان البحث العلمي الحر في ميدان الاقتصاد السياسي لا يلتقي فقط باولئك الاعداء الذين يلتقي بهم في الميادين الاخرى فان اصالة طابع المادة التي يعالجها الاقتصاد السياسي تستدعي الى حلبة النضال ضد البحث العلمي الحر اخرى مشاعر النفس البشرية واخسها وابشعها ـ اي غيلان المصلحة الخاصة فان الكنيسة الانجليكانية السامية (٣٣) ، مثلا ، تغفر بالاحرى الهجوم على ٣٨ بنداً من بنود قانون ايمانها الـ٣٩ ولا تغفر الهجوم على جزء واحد من ٣٩ جزءاً من دخلها النقدي . فان الالحاد نفسه هو في ايامنا culpa levis [خطيئة غير عظيمة] بالقياس الى نقد علاقـات الملكية التقليدية . الا ان التقدم في هذا الميدان لا شك فيه واني استشهد ، مثلا ، بالكتاب الازرق الذي صدر في الاسابيع الاخيرة واسمـه « Correspondence with Her Majesty's Missions Abroad,regarding Industrial Questions and Trades Unions » (٣٤) فان ممثلي التاج البريطاني في الخارج يعلنون هنا ، دون اي لبس وابهام ، ان التغير الجذري الذي طرأ على العلاقات القائمة بين الرأسمال والعمل في المانيا وفرنسا ، ـ وبكلمة ، في جميع الدول المتمدنة بالقارة الاوروبية ، ـ محسوس ومحتم بنفس القدر كما في انجلترا . وفي الوقت نفسه ، صرح في الجانب الآخر من المحيط الاطلسي ، السيد وايد ، نائب رئيس

الولايات المتحدة في اميركا الشمالية ، في اجتماع عام : بعد الغاء الرق ، يرد في جدول الاعمال تغيير علاقات الرأسمال وعلاقات ملكية الارض تغييراً جذريا هذه هي علائم الزمن وانك لن تحجبها عن النظر لا بالعباءة الارجوانية ولا بالجبة السوداء ولكن هذا لا يعني بالطبع انه ستحدث غداً معجزة بيد ان هذا يبين ان الطبقات السائدة نفسها شرعت تحس بصورة غامضة بان المجتمع الحالي ليس بلوراً صلبا ، بل عضوية قابلة للتحول ، وفي حالة دائمة من التحول

ان المجلد الثاني من هذا المؤلف سيتناول عملية تداول الرأسمال (الكتاب الثاني) واشكال العملية الرأسمالية بمجملها (الكتاب الثالث) ، والمجلد الثالث الاخير (الكتاب الرابع) ، تاريخ النظريات الاقتصادية

واني ساكون مسروراً لكل حكم من النقد العلمي اما فيما يتعلق باوهام ما يسمى الرأي العام الذي لم اقم له يوما بـاي تنازل ، فان شعاري يظل كما من قبل قول الفلورنسي العظيم

Segui il tuo corso'e lascia dir le genti !*

كارل ماركس

لندن ، ٢٥ تموز (يوليو) ١٨٦٧

صدر للمرة الاولى في كتاب :
K. Marx. « Das Kapital. Kritik der politischen Oekonomie ». Erster Band. Hamburg, 1867

يصدر حسب نص الطبعة الانجليزية لعام ١٨٨٧
تمت الترجمة نقلاً عن الانجليزية

---

* واصل طريقك ، ودع النـاس يقولون مـا يشاؤون ! دانتي . «الكوميديا الالهية» . المطهر . النشيد الخامس (مع التحوير) . الناشر .